في وجه التيئيس

حنّا ميـنه

اكرر ما قلته سابقاً: المناضل الحقيقي، في زمن الهزائم العربية، زمن التيئيس العربي، المخطط، المدروس، الممول بالبترو دولار، هو من لا ييأس، والمثقف مناضل على الجبهة الفكرية، ومن كرامة النضال والفكر معاً، الا ييأس المثقف، ويصدق، وان يتسلح بالوعي التاريخي، وبعمق، ليكون قادراً على مكافحة اليأس الذي يبشر به بعض الكتاب والشعراء الذين تفتح لهم مجلات وصحف عربية، مقيمة ومهاجرة، صدور صفحاتها، وتدفع لهم أجوراً خيالية.

انني لا اتهم بل أذكر بالواقع، اشدد عليه، فليس للثقافة العربية ان تتجدد مع كل حدث جديد، وهذا غير ممكن طبعاً، ولا ان تلهث وراء الاحداث وهي تتسارع، واللهاث لا يفيد، بل ان تعي دورها، مسؤوليتها، شرف مهمتها، وعندئذ لا يكون دورها ان تبدي رأياً فيما جرى، بل ان تسبق فتكون نذيراً بما سيجري، وتتخطى موقف المتفرج على المعركة، او الشاهد عليها، الى موقف الفاعل فيها، المغير لمجراها.

وليس للمثقف ان يخرج من مسوح الثقافة الى رادنجوتات السياسيين، وان يجعل الخطاب الثقافي بياناً سياسياً، بل ان يمتلك مفهوماً عن العالم، وان يؤمن به أولاً، وفي ضوئه، يمكن ان يرى الى حركة التاريخ، ويرصد صيرورتها، ويناصر كل ما يدفع هذه الحركة الى أمام، لا في آنيتها، التي قد تبدو ثابتة، بل في رحابة مداها، حيث كل شيء يتغير، وكل قديم يزول، وكل جديد يبقى، ليسلم نفسه، في المآل، الى جديد آخر، أفضل وأرقى.

ان مراجعة الافكار واعادة تقييم الدور، والتجددية الثقافية لا تتم نتيجة الهزيمة، او بانفعال موقت منها، أو أخذا بالرجة العصبية، او لحاقا بالموضة المازوشية المتولدة عنها، فالمثقف المسؤول، الصادق، الواعي لمهمته النضالية على جبهة الثقافة، ينبغي ان يكون ابن وطنه حقاً، ابن شعبه حقاً، ابن عصره حقاً، وان يكون مستعداً للاسهام في النقلة الفكرية بين الماضي والحاضر، بين ما صار باطلاً بحكم الزمن، وبين ما هو صحيح بحكم الزمن أيضاً، وان يعرف، عن طريق النظرة العلمية، من هم أعداء وطنه وشعبه، وبالتالي أعداء جميع الاوطان وجميع الشعوب، ومن هم اصدقاء هذا الوطن وهذا الشعب، ويتخلى عن دور الواقف على حد السكين، باسم الحياد الكاذب، وينتمي بكل طاقاته الابداعية الى صف الكفاح الوطني، القومي، العالمي، وينبذ اللامبالاة، والتهريج، والارتزاق عن طريق الحرف، وبذلك يحقق المراجعة، واعادة التقييم، والتجديد الثقافي، لا باسلوب البيانات والشعارات، بل بأكثر الاساليب الفنية جودة وأصالة وتعبيراً عن الواقع في صراعاته، تناقضاته، تطلعاته، حسه التاريخي، وحركة تغيره الدائمة.

مثل هذا المثقف، وخاصة المثقف الكاتب، لا يأتي، أولا يكون، وليد الهزات، او النكسات، أو الهزائم وحدها. هذه تفجر فيه طاقات جديدة، لكنها لا تخلقه خلقاً جديداً، اذا لم يكن قد خلق نفسه منذ البدء، وفهم التناقض الطبقي، والصراع الطبقي، وتحالفات القوى، وحدد موقفه منها، وانحاز الى صف قوى التقدم الذي يأتي اليه جميع المثقفين الشرفاء، من كل الطبقات.

وعندما يفعل المثقف ذلك، يجد طريقته في القول، وفي الابداع، وفي التوصيل، ويبلغ قلوب الناس، ويؤثر فيها، ويلعب دوره الصحيح، الكامل، مستمداً نسغ شجرته الفنية من عصب الحياة، لا من عروق الموت الباردة، المتفسخة.

ان معركة بيروت لم تكن هزيمة. والعدوان الاسرائيلي على الشعبين اللبناني والفلسطيني لم يكن

عدواناً، كان حرباً كاملة، خططت لها اميركا ونفذتها اسرائيل، وما زالت اللعبة قائمة بينهما لجعل لبنان محمية اميركية اسرائيلية، وقد أفدنا من هذه الحرب دروساً ثمينة، في رأسها انه يمكن محاربة اميركا واسرائيل كما جرى في لبنان، ويمكن للمدن العربية ان تصمد كما صمدت العاصمة اللبنانية، ويمكن لدولة عربية واحدة ان تخوض الحرب ضد اسرائيل كما خاضتها، ولو لأيام، سورية، وان وحدة مصالح الامة اكذوبة، فمصالح الملوك والرؤساء العرب غير مصالح الشعوب العربية، وان المعركة طويلة، لخمسين سنة مقبلة على الاقل، وان علينا أن نبني ثقافياً واقتصادياً وعسكرياً، ونفرز بعد كل معركة، اشياءنا على هدى معطياتها، وان يكون لنا بُعدُ نفس صمودي، فلا نمضغ المرارة، ولا نقتات اليأس، ولا نضيق دائرة رؤيتنا فنقصرها على منطقتنا، بل نرى الى العالم، وما يجري فيه، وما يتصاعد من قوى التحرر والتقدم، وما يتضامن من قوى الاستعمار والتخلف.

هذا يعني ان أكتب رواية جيدة، صادقة، أصيلة، فنية، اذا كنت روائياً، وقصة بالشروط نفسها اذا كنت قاصاً، وشعراً اذا كنت شاعراً، وبحثاً اذا كنت مفكراً، والا نخشى على الفكر التقدمي من الانكسار، ومن الاقتلاع، فهذا الفكر ليس خزفاً، ولم يهبط من فوق بل نبت من الارض، وهو أقوى وأرسخ مما يظن الذين يشحذون السكاكين لذبحه وذبح أصحابه.

لا أقول إن كل شيء جيد، لكني أؤكد ان كل شيء سيكون جيداً، فمنذ اربعين عاماً والامبريالية والصهيونية والرجعية تحاول تصفية القضية العربية، وحتى الآن ما زالت هذه القضية حيّة، وستبقى كذلك، لانها قضية الشعب العربي لا الحكام العرب، وحتى لو نجح هؤلاء في تآمرهم لتصفيتها، فانها ستظل حية كما الضمير العربي، كما النضال العربي، كما الانسان العربي؛ وستطرح نفسها من جديد، في مناخ جديد، وفي صداقات وتحالفات أقوى فأقوى.

المهم الا نيأس..

والمهم الا يخيفنا يأسَ البعض منا،

والمهم ان نفهم التاريخ، العصر، المستقبل، ونكتب في ضوء هذا الفهم.

دمشق

مؤلفات الدكتور سهيل ادريس

في طبعة جديدة

روايات

- الحيّ اللاتيني (الطبعة الثامنة)
- الخندق الغميق (الطبعة الرابعة)
- أصابعنا التي تحترق (الطبعة الخامسة)

قصص

- أقاصيص أولى (الطبعة الثانية)
- أقاصيص ثانية (الطبعة الثانية)

آفاق « الآداب »

- في معترك القومية والحرية (ط ٢)
- مواقف وقضايا أدبية (ط ٢)

مترجمات (صدرت أخيراً)

- الطاعون - لألبير كامو
- الثلج يشتعل - لريجيس دوبريه
- من أكون في اعتقادكم - لروجيه غارودي